

الباب الخامس

في الموازنة الأدبية

- ١ -

الموازنة بين الأشياء والآراء أصل من أصول البحث العلمى ذى الآثار الهامة فى العلوم والفنون ، يعتمد إليه علماء النبات مثلاً فيقرنون كل نوع نباتى بآخر لمعرفة أوجه التشابه والتقابل بينهما توصلًا إلى تعرف كل نوع وتحديد خواصه العنصرية وآثارها ، وعن ذلك تتكون الفصائل النباتية وتوضع قوانينها العلمية وتسير التجارب التطبيقية ، وكذلك يعمل علماء الطبيعة والكيمياء بالعناصر والأحماض والفلاسفة بالآراء والنظريات ، والمؤرخون بالحوادث والعصور ، والجغرافيون بالبيئات والأقاليم ، والفنميون بالأدب والرسم والتصوير والموسيقا وبالألوان المختلفة والألحان المتباينة والعناصر البيانية والقطع الفنية .

وطبعى أن تدخل الموازنة باب الدراسة الأدبية نقداً وتاريخاً للفرق والمقابلة بين عناصر الأدب ، وفنونه ، وعصوره ، ورجالها قصد الإيضاح أو الترجيح .

وقد ظهرت الموازنة مبكرة فى تاريخ الأدب العربى وبقيت تسيره على مرّ العصور إلى اليوم . وستبقى دائماً من وسائله النقدية والتأريخية ، فإذا صح ما روى من قصة أم جندب وموازنتها بين امرئ القيس وعلقمة فى وصف القرس ، ومن أن النابغة الذبياني كان الحكم الأدبى بين شعراء عكاظ ، دلنا ذلك على أن الموازنة كانت أساساً للمفاضلة منذ الجاهلية ، وكانت مدرسة الخطيئة وكعب بن زهير

مقابلة لمدرسة الشاوخ وأخيه مزرد^(١) وفي صدر الاسلام كانت الموازنة بين القرآن الكريم وكلام العرب ، وكانت بين شعراء الرسول وخطبائه من ناحية وشعراء الوفود العربية وخطبائهم من ناحية أخرى . وكان العصر الأموي زاخراً بالموازنة بين الفحول والعزليين والسياسيين من الشعراء ، وبين الخطباء والأدباء جميعاً فخلف لنا ثروة نقدية قيمة على رغم ما تأثرت بالعصبية والأهواء والأمزجة . أما في العصر العباسي فقد بدأ هذا الفن النقدي نشيطاً بين بشار بن برد ومروان بن أبي حفصة ، وبين مسلم بن الوليد وأبي العتاهية وأبي نواس ، ثم بين أبي تمام والبحرئى وبين المتنبي وخصومه ، وبين ابن المقفع وعبد الحميد ، وبين البديع والحوارزمي وبين الفلاسفة وعلماء الأدب ورجال الدين والفن وبين الشعراء والنثر والخطابة والكتابة واللفظ والمعنى وبين الفكرة والفكرة والخيال والخيال وبين الأشياء والأحياء ، وفي كل ما هو صالح لهذا الضرب ، وهذا عصرنا الحديث يتخذ الموازنة أساساً لأبحاثه نزولاً على طبيعة الدراسات في أصح أوضاعها وأقوم سبلها .

ذلك من الناحية الفنية ، وأما الناحية التاريخية المتصلة بالتدوين وتقرير الآراء وأصول الموازنة فلم تتخلف كثيراً عن ذلك ، وكان محمد ابن سلام الحمصي المتوفى سنة ٢٣١ هـ من أسبق من عرضوا الموازنة في كتابه — أو كتابيه على ما يظهر — طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين . فان جملة هؤلاء الشعراء طبقات قام على الموازنة الفنية التي ترجع إلى أساسين : كثرة الشعر ، وجودته . وجاء ابن تقيية في مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) فظهرت الموازنة عنده في اختياره لكل شاعر ما يراه جيداً وفي تقسيمه الشعر أقساماً فنية أربعة ، والشعراء إلى مطبوعين ومتكافين وفي غير ذلك . وكان الصولي في أخبار أبي تمام منصفاً

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ص ٣٤ طبعة مصر .

بين القدماء والمحدثين حين عرف لكل فريق تجويده في وصف يئنه التي شهدها دون الأخرى التي يصفها تقليداً واستشهد لذلك بقول أبي نواس :

صِفَةُ الطَّلُولِ بِلاغةُ القَدَمِ فاجعل صفاتِكَ لابنَ الكَرَمِ
تَصِفُ الطَّلُولَ على السَّماعِ بها أَفْذُو العيانِ كَأَنَّكَ في الفهمِ
وإذا وصفتَ الشَّيءَ متبعا لم تحلُ من زَلالٍ ومن وَهمٍ
ثم ساق في كتابه أمثله للموازنة بين أبي تمام والبحترى غالباً مع ميل إلى أبي تمام صريح . ولكن الأمدى في كتاب الموازنة فاضل بين البحترى وأبي تمام لغزارة شعريهما وكثرة جديهما وبدائعها وذكر لكل خواصه مع ميل إلى البحترى^(١) وإن حاول إخفاؤه وادعى البراءة منه ومن إطلاق القول بأيهما أشعر عنده لتباين الناس في العلم واختلاف مذاهبهم في الشعر ، وله في ذلك أسوة إذ لم يتفق الناس على تفضيل أحد فحول الجاهلين والإسلاميين ولا المحدثين ، وقد حاول أن يتخذ للموازنة وضعاً أو صورة دقيقة بعقدها بين قصيدتين من شعرهما إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية ، ولكن هذا لا يكاد يتفق مع اتفاق المعاني التي يقصدان إليها^(٢) .

وخلاصة مذهب الأمدى في الموازنة بين الطائيين هي « توضيح لمذاهب الشعر العربي ، واستنباط لأصالة كل منهما في كل معنى عبّر عنه ، ثم مقارنة ما قالاه بما قاله غيرهما من الشعراء مع الحكم على تلك الأصالة حكماً يقوم على الذوق والحقائق الإنسانية العامة ، وإن لم يخل الأمر من تحسّم ، ثم الوقوف في تفسير التفاوت عند النزعة الفنية دون أي محاولة ليرد ذلك إلى الطبيعة النفسية لكل شاعر ، وذلك لفظنة الناقد إلى أنه لا علاقة بين شعر هذين الشاعرين وتجارب حياتهما ؟ ! »^(٣) .

(١) ص ١ و ٢ و ١٦٦ و ١٧٢ طبعة الجوانب . (٢) ص ٣ و ١٧٤ .

(٣) محمد مندور : تيارات النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري (مخطوط) ص ٣٦٩ .

« هذه موازنة الآمدى وسبيله إليها وهى ، كما ترى موازنة منهجية فى ناحيتها المختلفتين : ناحية المفاضلة وناحية استنباط الخصائص . والمشهد فى تاريخ النقد العربى ، أنها ظلت الوحيدة من نوعها إذ أن المؤلفين اللاحقين قد اكتفوا بأحد أمور : —

(١) فإما أن ينقلوا إلينا آراء السابقين فى المفاضلة بين الشعراء وهذا ما نجده فى العمد لابن رشيق .

(٢) وإما أن يأتوا بموازنة وصفية عامة كتلك التى يوردها ابن الأثير عندما يوازن بين أبى تمام والبحتري والمتنبي ، ويحدد فيها خصائص كل منهم .

(٣) وإما أن يضعوا مقاييس للحكم على جودة الشعر وردائه كما يفعل عبد القاهر الجرجاني .

ولقد سبق أن رأينا عبد العزيز الجرجاني نفسه يقارن بين المتنبي وغيره من الشعراء كما فعل فى وصفه للحمى ، ووصفه للأسد ، ولكن مقارنته جاءت مقتضبة لاغناء فيها .

موازنة الآمدى ، إذاً ، فريدة فى النقد العربى ، ونحن لم نقصد من هذا الفصل إلى إظهار كل ما فيها من غنى ، وإنما وضحنا موضوعاتها ومناهجها تاركين للقارئ أن يتمهل عند ما فيها من تفاصيل ، وهو لا ريب ، واجد عندئذ ثروة لا حد لقيمتها^(١) .

وأما الجرجاني فى كتاب الوساطة فقد عزا النبوغ فى الشعر إلى الطبع والرواية والدرية . ووازن — على هذا الأساس — بين القدماء والمحدثين فوجد حاجة المحدثين إلى الرواية أمس وإلى كثرة الحفظ أفقر . ووازن بين أساليب

الشعر من حيث دلالتها على اختلاف الطبائع والخلق وتنوعها حسب الفنون الشعرية المختلفة .

« وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب وبدء فأغزر ولمن كثرت سواير أمثاله وشوارد أبياته ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالابداع والاستعارة إذا حصل لها عود الشعر ونظام القريض ^(١) .

وجاء ابن رشيقي في كتاب العمدة فألم بأراء سابقيه مما يتصل بالموازنة فأبو عمرو بن العلاء كان يعد جريراً وطبقته مولدين بالنسبة للجاهليين وكان لا يعد شعراً إلا للمتقدمين ولا يحتاج إلا بشعرهم ومثل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سُبِقوا إليه وما كان من قبيح فهو من عندهم ، وليس النمط واحداً ، ترى قطعة ديباج وقطعة مسح وقطعة نطع ، ومثله في ذلك الأصمعي وابن الاعرابي كل واحد منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب ، وليس ذلك إلا لحاجتهم في الشعر إلى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون ثم صار لجاجة ^(٢) ثم أورد لابن قتيبة كلاماً يشبه ما مر للصولي ، وما قيل من أن علي بن أبي طالب كان يفضل امرأ القيس على الشعراء بأنه كان أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة وأنه لم يقل لرغبة ولا لرغبة ، ثم ما قال العلماء عنه من سبقه إلى أشياء أخذ بها الشعراء ^(٣) وبعد هذا يقسم الشعراء إلى طبقات زمانية وفنية ^(٤) وإلى أنصار اللفظ وأنصار المعنى ^(٥) والشعر إلى مطبوع ومصنوع ^(٦) ثم يوازن بين الشعراء في البيئية والارتجال ^(٧) وفي التصرف في فنون الشعر ^(٨) ويوازن بينهم وبين الشعراء من

(١) ص ٣٨ . (٢) ج ١ ص ٥٦ . (٣) ج ١ ص ٥٩ .
(٤) ج ١ ص ٧٢ . (٥) ج ١ ص ٨٢ . (٦) ج ١ ص ٨٣ .
(٧) ج ١ ص ١٢٧ . (٨) ج ٢ ص ٨٢ .

الكتاب الذين برامهم أرق شعراً وأحسن أسلوباً وألطف معاني وأقدر على التصرف وأبعد من التكلف موازناً بين الصولى وابن الرومى^(١) ويعرض أخيراً لسيرة الشعراء ومن ظفر بها من الشعراء^(٢).

فلما نهض عبد القاهر الجرجاني فى القرن الخامس بدراسته البلاغية الرائعة لم يخل فصل من كتابيه (دلائل الاعجاز) و (أسرار البلاغة) من مثل للموازنة بين أساليب البيان وعباراته ومعانيه ، ولكنه فى دلائل الاعجاز خاصة وازن فى الشعر بين معانيه « وهو ينقسم قسمين : قسم أنت ترى أحد الشعارين فيه قد أتى بالمعنى غفلاً ساذجاً وترى الآخر قد أخرجه فى صورة تروق وتعجب ، وقسم أنت ترى كل واحد من الشعارين قد صنع فى المعنى وصوره^(٣) » ومثل ذلك ثم فسر الصورة بأنها طريقة عرض المعنى وهى مجال اختلاف الشعراء واستشهد بقول الجاحظ : وإنما الشعر صناعة وضرب من التصوير^(٤).

وينتهى الأمر إلى ابن الأثير فى المثل السائر فيتناول الموازنة كما تناول السرقات الشعرية بدراسة لا بأس بها ، فيوازن بين أبى تمام والمتنبي والبحترى ويفضلهم على جميع شعراء العربية إلى عهده وينتهى من الموازنة إلى أن الأولين حكيمان والشاعر هو البحترى^(٥) وتدعوه دراسة السرقات إلى الموازنة بين أبى تمام والمتنبي فى رثاء الأطفال مبيناً ما انفقا فيه من المعانى وما اختلفا فيه^(٦) ثم يقول بعقب ذلك « واعلم أن التفضيل بين المعنيين المتنفقين أيسر خطباً من التفضيل بين المعنيين المختلفين واحتجوا على ذلك بأن قالوا . المفاضلة بين الكلامين لا تكون إلا باشتراكهما فى المعنى فان اعتبار التأليف فى نظم الكلام لا يكون إلا باعتبار المعانى المندرجة تحتها . . وهذا القول فاسد فإنه لو كان ما ذهب إليه هؤلاء من

(١) ج ٢ ص ٨٤ — ٨٨ (٢) ج ٢ ص ١٤٦ (٣) ص ٣٧٤

(٤) ص ٣٨٩ (٥) ص ٣٠٢ (٦) ص ٣١٢

منع المفاضلة حقاً لوجب أن تسقط التفرقة بين جيد الكلام ورديئه وحسنه وهذا محال . . .»^(١) .

واعلمه يرد بذلك على عبد القاهر الجرجاني . ثم ينسك المفاضلة القائمة على الأعصار لا على الأشعار ، ويرتاح إلى هذه الموازنة الوصفية — من غير تفضيل — التي عقدها الشريف الرضى بين أبي تمام والمتنبي حين سئل عنهم فقال : « أما أبو تمام فخطيب منبر وأما البحتري فواصف جوذر وأما المتنبي فقائد عسكر »^(٢) وعند ابن الأثير ألا يفتى في الأدب إلا أديب ، وأن فحول الجاهلية أجاد كل منهم في باب عرف به . وأما الاسلاميون فقد أجادوا في كل ما آتوا به من المعاني المختلفة وأشعر منهم الثلاثة المتأخرون ، ثم يوازن بين المتنبي والبحتري في وصف الأسد^(٣) وفي الرثاء ويؤثر الموازنة القائمة على مقصد يشتمل على عدة معان فذلك أئين في المفاضلة من التوارد على معنى واحد^(٤) وبذلك يكون ابن الأثير قد عني بمسألتين أوسعتا أفق الموازنة : عدم الوقوف عند المعنى المفرد ، وعدم لزوم الوحدة الفنية أو الموضوعية . وينتهي كتابه بمسألتين أخريين : الموازنة بين الكتابة والشعر ، وبين الشعر العربي والفارسي في اشتمال الثاني على فن القصص ثمثله شاهنامة الفردوسي^(٥) .

ومن المعاصرين الذين كتبوا في الموازنة الأستاذ قسطنطين الحلبي في كتابه (منهل الوارد في علم الانتقاد) وعنده أن النقد الشديد على درجات ثلاث : الشرح والتبويب والحكم وقد وزن بين نصوص شعرية في أشهر فنون الشعر موضحاً آراءه^(٦) . ولصحة الحكم على الأدب قواعد خمسة : نقد القائل ، والقول

(١) ص ٣١٤ .

(٢) ص ٢١٥ .

(٣) ص ٣٢٢ .

(٤) ص ٢١٩ .

(٥) ص ٣١٨ .

(٦) ج ١ ص ٢٣١ و ج ٢ ص ٨٣ .

والمقول فيه، والزمان، والمكان. وبت الحكم يكون بالترجيح أو بترتيب الشيء وتحديد درجته وتعيين طبقته^(١). ومنهم الأستاذ زكي مبارك في كتابه (الموازنة بين الشعراء) فقد ألم في قسمه الأول بأهواء النقاد ودعا إلى وجوب البراءة منها لأن النقد نوع من القضاء، والموازنة عنده نوع من النقد والوصف، وعلى الموازن أن يعرف حياة من يوازن بينهما ويصل بين نفسه ونفسيهما لأن الأديب يؤدي رسالته في جيل خاص وبيئة خاصة، وأن يوسع أفق النقد وأفق يكون واضحاً ذوقاً سديداً. وعليه في الموازنة بين الشعراء أن يدرس نواحي اشتراكهم وافتراقهم وابتداعهم وأخذهم^(٢) إلى غير ذلك. ثم عرض في قسمه الثاني أمثلة تطبيقية نافعة.

— ٢ —

هذا العرض التاريخي السريع يعيننا على وضع الأصول اللازمة لعقد الموازنات الأدبية بين الكتاب والخطباء والشعراء وهي تتراءى في ناحيتين:

الأولى: ما يأخذ به الناقد نفسه حين يوازن بين عصرين أو فنيين أو أدبيين أو كتابين أو أمهلوين أو معنيين إلى غير ذلك.

الثانية: ما يتصل بالأوضاع اللازمة لصحة الموازنة حتى تكون معقولة ممكنة. أما عن الناقد فقد ذكرنا فيما سلف ما يجب أن يتوافر له من كفاية فنية، ونزاهة أدبية، وخطة عملية^(٣) ونريد هنا ما يتصل بفن الموازنة وأهم ذلك ما يلي:

(١) أن يكون ملماً بسيرة كل من يوازن بينهم من الكتاب والشعراء والمؤلفين وما توارد على كل من أطوار الحياة، وأحداث الزمان، والمزاج الغالب عليه

(١) ج ٢ ص ٨٣ وما عليها.

(٢) ص ٥٨ الطبعة الأولى. (٣) الباب الثاني: الفصل الثالث من هذا الكتاب.

وكيف درس وماذا كان يعمل، فذلك ينفعه سواء أكانت موازنة تفسيرية يقصد بها الإيضاح أم ترجيحية تنهى بتفضيل طرف على آخر وقد أسبقنا القول في دراسة السير وفضلها على الأدب . ويظهر ذلك حينما نوازن بين الأعشى وزهير، وبين جميل وعمر بن أبي ربيعة، وبين جرير وصاحبيه، وبين ابن الرومي وابن المعتز وبين الجاحظ وابن قتيبة، وأخيراً بين شوقي وحافظ وعبد المطلب، فلكل من هؤلاء حياته الخاصة التي طبعت آثاره طابعاً خاصاً إذا عرفها الناقد استطاع أن يفسر بها ما يميزه من زميله أو يعرف سبب فضله عليه في كل فنونه أوفى بعضها .

(٢) أن يتبين النواحي التي اشترك فيها الأدباء أو الآثار الأدبية التي اختلفوا فيها، ثم ينتقل إلى الأفكار والأخيلة والأساليب وإلى الموضوعات التي تناولتها الكتب والأغراض التي ترمى إليها القصص وطرق الأداء لتكون موازنته عامة شاملة فكتاب الأدب الخاص غير كتب التاريخ والجغرافيا والفلسفة، ولكل من جرير والفرزدق وفخر وهجاء ونسب ورتاء ومدح ومع ذلك فبينهما فروق في هذه الفنون التي اشتركوا فيها، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة يخالف طبقات الشعراء لابن سلام على وحدة موضوعها، وكل من الجاحظ وابن خلدون كاتب ولكن بينهما من الفروق كثير . فذلك من شأنه أن يشرح ميزات، كل ويعين على الإيضاح والانصاف .

(٣) ولا بد من معرفة مبتكرات كل أو سرقاته وكيف أخذها ومقدار ما يفرقه من زميله في ذلك وما يوصله به وذلك يظهر أكثر إذا اتحدت الموضوعات والفنون الأدبية شعراً ونثراً، خطابة أو تأليفاً كما أسبقنا، فليس من شك أن هناك صلة ما بين ابن الخطاب وزيد ابن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي في الخطابة والسياسة، وبين أبي تمام والبحترى في فنون الشعر ومعانيه، وبين

البديع والحبرى فى فن المقامات ، وكل من المتأخرين أخذ من سابقه ثم امتاز بأشياء طريفة كما هو مفصل فى كتب النقد التى ذكرناها منذ حين . وهؤلاء الكتاب والعلماء المعاصرون بينهم من التواصل والتقابل فى الأفكار والأساليب والمناهج ما هو معروف^(١) وذلك كله يتضح فى الموازنة بين العصور الأدبية والتاريخية ، فكل خواصه التى تميزه وإن كانت كلها قائمة على الأدب وفنونه ورجاله أو على العوامل السياسية والاجتماعية التى تحمّل الحياة وتدفع بالشعوب فى طريق الحياة أو الممات .

وأما عن الأوضاع اللازمة لعقد هذه الموازنة فكثيرة متنوعة ، ولكنها جميعاً تعود إلى أصل واحد هو أن طرفى الموازنة لا بد أن يكون بينهما اتفاق من ناحية واختلاف من ناحية أخرى ، فالأشياء المتفقة فى كل شىء ، على فرض وجودها ، لا معنى للموازنة بينها إذ هى شىء واحد مكرر الصورة . والأشياء المختلفة فى كل شىء ، على فرض وجودها لا معنى للموازنة بينها كذلك إذ لا مناسبة بينها تقرر بين أفرادها . فالليل والنهار يتفقان فى أنهما وحدتا الزمان أو مقياساه ويختلفان فيما يلبس كلا من نور وظلمة وظهور وكواكب ومغيب أخرى ، ونشاط أو فتور فى حركة الحياة ، والعلم والفن يتفقان فى أنهما وسيلتا الحياة ، ومظهر معارفها ورقبها ، ولفة الجهود الإنسانية . ثم يفترقان فى هذه الوجوه التى ألمنا بها من قبل^(٢) وهكذا . ولعل المرجع الأول لذلك كله هو (وحدة الحياة) فى أصولها الأولى ثم اختلاف مظاهرها اختلافاً متباين الدرجات والأشكال .

ويمكن عرض بعض الأوضاع لشرح هذا الأصل العام فيما يلى :

١ — توافر الميزة وحده كاف لعقد موازنة بين شيئين مهما يختلفا ويتباعد

(١) راجع الأسلوب لأحد الثايب ص ٨٠ و ١٢٥ طبعة ثانية والموازنة بين الشعراء لوكى مبارك ص ٢٥ .

(٢) الفصل الخامس من الباب الأول .

وذلك يسمح بالموازنة بين العالم والأديب، وبين السياسى والاقتصادى وبين الخير والشرير من كل ذى أثر فى الحياة كما يوازن بين عصور الرقى والانحطاط وبين أنواع الثقافات ومختلف الشعوب والبيئات، وبين الآداب والحضارات .

٢ — بلى ذلك اتحاد الموضوع بين الطرفين، وهذا هو ما يجعلنا نقرن عالماً بعالم، وفنياً بفنى، وكانباً بكتاب، وشاعراً وخطيباً أو روائياً بنظيره. وهنا تكون جهة الاتحاد أقرب وأوضح وتسهل على الناقد مهمته كما نوازن بين جرير والفرزدق وبين ابن سينا والفارابى وبين الجاحظ وابن خلدون وبين على ومعاوية وبين السكاكى والجرجاني، وبين سيبويه وابن هشام، وبين الطبرى وابن الأثير .

٣ — بعد ذلك تكون الوحدة فى باب بعينه من أبواب الفن، كما نوازن بين الغزل الجاهلى والإسلامى أو بين عمر وجميل فى هذا الفن أو بين رسائل الجاحظ والبدیع أو بين البحتري والمعرى فى الرثاء أو بين قدامة وابن رشيق فى نقد الشعر أو بين ابن قتيبة وابن سلام فى نظام طبقات الشعراء أو بين الأدباء والفلاسفة فى أصول النقد الأدبى، وبين مأساة وأختها ومقالة وأخرى .

٤ — ونصل أخيراً إلى عناصر الأدب من عاطفة وخيال وأفكار وعبارات . وقد فصلنا القول فيها فى الباب الثالث من هذا الكتاب، فلا حاجة بنا إلى تكرار ما أسبقناه، غير أننا نلاحظ أن الموازنة بين هذه العناصر قد غلبت على النقد العربى القديم وكانت الآراء النقدية تدور حولها وإن لم تنس الإشارات العامة إلى الفنون والأشخاص والبيئات والعصور .

ولن تتسع هذه الفصول لتطبيق أصول الموازنة وتمثيلها فى كل هذه الأبواب والنواحي فذلك يعوزه كتاب فذ، لذلك أقتصر على الاشارات الموجزة إلى

مواطن الأمثلة أو إلى منهجها ، وعلى القارئ إتمام ما بدأنا ، وعسى أن يوفقنا الله إلى وضع كتاب يكمل هذا ويتناول النقد التطبيقي .

أما الكلام في عناصر الأدب فقد ألم به كتاب النقد السابقون مثل قدامة والعسكري والآمدى وعبد القاهر الجرجاني إماماً صالحاً فيما وازنوا بين الشعراء خاصة وفيما بحثوا من نظم الكلام وعباراته .

والكلام في الأساليب واختلافها باختلاف الفنون والأدباء قد ورد في كتاب (الأسلوب) كما وردت به موازنات بين المناهج العلمية وأصحابها وبين الفنون الأدبية خاصة وعامة .

والموازنة بين القصيد أو بين الرسائل تجدها في كتابي الأستاذين قسطاكي الحمصي وزكي مبارك السالفي الذكر وقد نشرت في (الهلل) ^(١) بحثاً في رثاء المعري يصلح مثالا عاماً لذلك ، كما تجد في إعجاز القرآن للباقلاني والمثل السائر لابن الأثير مثلاً لا بأس بها .

وفي تضايف هذا الكتاب وكتاب الأسلوب أصول للموازنات الزمانية ، والمكانية ، والعلمية ، والفنية ، والأدبية ، والجنسية يمكن القياس عليها وإكمالها والانتهاؤها منها إلى ما فيه الكفاية .

ومع ذلك فقد يكون من الخير أن أختم هذا الباب بمثال واحد يوضح ولو جانباً من هذه الأصول التي أشرنا إليها وذلك هو فن الرثاء بين أبي تمام والبحتري وابن الرومي والمعري . أبو تمام يرثي محمد بن حميد الطوسي بقصيدة مطلعها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
والبحتري يرثي المتوكل بقصيدته المعروفة :

محلٌ على القاطول أخلق دائره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

وابن الرومي يرثي ولده محمدا بقوله :

بكاؤكما يشقى وإن كان لا يجدى فجودا فقد أودى نظير كما عندي

وأما أبو العلاء فانه يرثي فقيها حنفيا بقصيدته :

غيرُ مجدٍ في ملئى واعتقادي نوحُ باك ولا ترثمُ شاد

ولكنهم بعد ذلك — كلهم أو بعضهم — يختلفون في أشياء كثيرة : في

الجنس والزمان والمكان والنشأة والسيرة والشخصية والمزاج ، وفي الصلة بمن

يرثون ، وفي البحور العروضية ، وفي خواص كل عنصر من عناصر القصيدة .

كان كل منهم طرازا خاصا في قصيدته ، وحتى تفاوتت درجاتهم الفنية فيها .

فاذا تركنا نواحى الاختلاف العامة المعروفة المتصلة بالسيرة والبيئة وتقدمنا

إلى الجوانب الفنية المباشرة انتهينا إلى ما يلي :

(١) كان ابن الرومي أضييق الجميع في أفقه العاطفى إذ أداره حول ابنه

والبنوة فلم يوسعه لغير هذه الحال وإن كانت عاطفته حادة صادقة :

توخى حمام الموت أصغر صبيتي فله كيف اختار واسطة العقد

وكان أبو تمام أوسع منه قليلا إذ كان يرثي بنى نبهان كلهم لما عرض لكبيرهم

يملكه ، فقد تجاوز حزنه إلى القبيلة فشملمها جماء :

كأن بنى نبهان يوم وفاته نجوم سماء خرَّ من بينها البدر

ولكن البجترى كان يرثي الدولة الاسلامية أو الخلافة العباسية فتجاوز

الفرد والقبيلة والأمة إلى هذا العالم الذى يشرف عليه قصر المتوكل :

كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة بشاشتها ، والمالك يشرق زاهره

ولم تجمع الدنيا لديه بهاءها وبهجتها، والعيش غرض مكاسره

أما أبو العلاء فكان أوسع الجميع أفقا وأسمى عاطفة ، فقد كان يرثي الدنيا

جميعا ويقف على هذا البرزخ الذى يصل أو يفصل بين الموت والحياة .

كلُّ دارٍ للهدم ما تبتنى الورقاء والسيد الرفيع العماد
والفتى ظاعن ويكفيه ظلُّ السدر ضرب الأطناب والأوتاد
(٢) وكان الخيال عند كل من الأربعة متناسبا مع أفعه العاطفي من جهة،
ومع شخصية الميت من جهة ثانية . فهو عند ابن الرومي — لأنه يرثي طفلا —
واسطة العقد ، ومطلع الأمل ، وعدوان الموت ، ونهك النزف ، وحب القلب ،
وحزن الأبد ، وثورة على المنايا القاسية وعزوف عن الصبر ومشوبته . وهو عند
أبي تمام — لأنه يرثي زعيما — موت الآمال ، وحياة اليأس والمعصرة وشقاء
القبيل وذهاب الشجاعة والنجدة ، وكرهية الدهر ، وفقد الصبر والعزاء . وخيال
البحترى — لأنه يرثي خليفة — مشتق من خراب القصور ، وتشقت الخرد
المترفات وغدر الأبناء بالآباء ، وذهاب الحجاب والأعوان وزلزال الخلافة
الاسلامية وطموس البهجة الدنيوية ، والأمل في استقرار الأمور في نصابها .
أما المعري — لرثائه الحياة كلها — فقد استنزل الكواكب السائرة ، والحائم
المفردة ، وجمع بين الأرض والسماء ، وخلط بين الحزن والسرور ، وسخر من
مظاهر الحياة ، وعقد بين أطراف الزمان ، فاذا الحياة مهزلة والكون إلى فناء .
(٣) وكل كان يسند عاطفته بكفائها من الأفسكار والحقائق وأن نسبوا
إلى أبي تمام سرقة ما في مراثيه من أفكار وصور ، فإن ابن الرومي فقد خير بذيه
في ميعه الصبا وطاعة الأمل ، وضحية المرض الأليم ، حين لا يجد عنه عزاء
ولا سلوى إلا لذعات الألم تحزه كلما شهد أخويه يلعبان . وأبو تمام فقد كريمًا
نجدا ذهب في سبيل ثباته وكرامته ، فذهب معه الصبر ، وانهار مجد القبيلة ،
واشترك في فقد جميع الناس . والبحترى يسند حزنه إلى غدر ولي العهد بأبيه
وضعف مكانة الخلافة ، واستعانة بالأجنبي على الوالد ، وسلطان الأثرة ،
وشناعة المصراع ، وسوء العاقبة . ولكن المعري لما حزن على الكون برر

شعوره بما يشهد الناس من أجيال تتعاقب على مسرح الحياة ، فتلقى عنتها ثم تذهب هباء ، يحيا الخلف على تراث السلف ، والموت رصد لكل كائن فالحياة مدعاة السخرية والعجب ، والموت غايتها الطبيعية المنظورة ، والناس أمام ذلك عاجزون .

(٤) وإذا رجعنا إلى الأسلوب فانا نلاحظ الوضوح متوافرا في جميع القصائد ، والقوة أظهر عند أبي تمام فابن الرومي ، والجمال متجليا عند المعري فالبحتري ، وسبب ذلك شخصيات الشعراء المختلفة وصدى الحوادث في نفوسهم وكيفية تلقيها ، فزعين ثائرين أو متأملين مطمئنين وكان البحر العروضي عند المعري من أسباب الجمال وروعة الأسلوب . ويمكن الاكتفاء بهذا القدر إذا كنا نطلب الإيضاح والتفسير . أما إذا كان لابد من الترجيح وبت الحكم ، فالمعري أول هؤلاء جميعاً لسمو عاطفته ، وصدق نظراته وجمال أسلوبه ، ويليه البحتري في ذلك . وفي الدرجة الثالثة نضع أبا تمام وابن الرومي فإن صدق العاطفة وحرارتها عند ابن الرومي كفاء سعة الأفق وقوة الأسلوب عند أبي تمام لأن هذا كان مادحا واصفا أكثر منه راثيا .

وإذا كانت الميزة لا تقتضى الأفضلية فلا يفهم مما ذكرت أنى فاضلت بين هؤلاء الشعراء مفاضلة عامة ، بل وقفت عندهذه القصائد التي أجملت الموازنة بينها ليس غير . ويستطيع القارئ الاستئناس بما ذكرنا ليقول فيما لم نذكر . ولعل في ذلك ما يكفي ولو إلى حين .